عندما غادروا فلسطين . وكان في بيروت ، في العالم المدمر لمخيمات اللاجئين ، ان قمت بقفزتي الاصلية الى وعي ناضج وان كونت نظرتي الى العالم . وكان هنا ان اعيد جمع امتنا في المنفى ، جمعا اقوى منه في اي جزء آخر من اجزاء غربتنا . وكان هنا ان خلقت صيغ الوعي الباطني لجيلي الوطن الوجودي الاصيل الوحيد في العالم ، وهو وطن كانت علته وتوتراته الجماعية ، طيلة هذه السنين ، جزءا لا يتجزأ من جغرافية روحي .

اليوم في بيروت ابحث عن الصلة التي تربط جيلي من الفلسطينيين بجيلين آخرين ــ جيل والدي وذلك الجيل الذي ولد ونشأ كليا في المنفى . ولعلي بفعل ذلك سأتعلم شيئا عن المشاغل الداخلية للنفس الوطنية للفلسطينيين،وعما يؤلف أبعاد وطن وجودي.وقد اتعلم لماذا لايوجد اي انقطاع في الصلة التي تربط وعيي بوعي الفلسطينيين الآخرين الذين « بقوا » في لبنان واماكن اخرى . وقد اكتسب فكرة متماسكة عن كيف ان روح كل جيل كان قد نشأ عن نفس الباعث ، عن الرغبة في العودة الى فلسطين ، على الرغم من كون كل جيل قد جلب معه على نحو محتوم شيئا مختلفا ـ ظلا من الفارق يضاف الى هويتنا،توترا خاصا يتميزبه.وكيف ان رؤيا العودة، الكثيرة الشيوع في ادابنا وفولكلورنا وعادات تبادلنا الاحتفالي ، قد غدت اختبارا متقاسما ، كالدين والاسطورة ، وثبت الفلسطيني الفرد من خلالها مجموعة معانيه .

جئت الى هنا،الى بيروت لاجد اجوبة عن نفسي كما عن شعبي . واظل اسأل لماذا . لماذا تبقى الميثولوجيا الناشطة لجيل والدي ، عند المستويات المنوية للارتباط بها ، مطابقة لميثولوجيتي ؟ وما هي الطاقة المعقدة واء كون لغة واستعارة الفلسطينيين في كل مكان تتميزان بشبه داخلي لهم ، استقلال مغلف خاص بهم . ولماذا لم نختف كليا في انفساح غربتنا ؟ ولماذا في مواضعنا المجزأة المتباينة ، في الضفة الغربية وغزة و« داخل اسرائيل » ، وفي الكويت والعربية السعودية وسورية واجزاء اخرى من العالم العربي ، وفي استراليا والولايات المتحدة واوروبا ، لم نفقد قبضتنا على فلسطيني بوصفها المرجع الوحيد في حياتنا اليومية ، حتى بعدما فقدت فلسطين مسوغاتها الجغرافية بوقت طويل ؟ ولماذا في كل مرة عاد بها فلسطيني الى لا وعيه ، لينشد تحديداته الذاتية ، وليضم جراح حاسة آخريته ، كان على اتصال بلا وعي جماعي متجذر في فلسطين ؟ ولماذا تحولت فلسطين الى فكرة بقدر ما هي ارض ودخلت ، بمثل هذا اليأس ، نفس الفلسطينيين واضطرم فيها اللهب ، فغدت المصدر البنيوي الوحيد لتوتراتهم ، ولوضعهم الوجودي والاختباري ؟

البعض بحث عن اجوبة اكاديمية لكل هذه الاسئلة وعثر عليها في سوسيولوجية الملعونين ، سوسيولوجية شعب اختبر خسارة تتخطى كل فهم عقلاني . حينما حاولت ان اعين سبب هواجسي ، معتمدا على موارد داخلية لايسعني ادراكهاولا تفسيرها ، وجدت جوابا واحدا . فانا اعتقد حقا اننا في الواقع لم نغادر فلسطين ابدا . اخذناها فحسب معنا ، سنة ١٩٤٨ ، ونقلناها ، سليمة ، الى الاماكن المختلفة في الغربة التي سكناها منذ ذلك الحين . واعلم انني لم اعش قط خارج فلسطين منذ ذلك الوقت ، لثلاثين سنة خلت ، عندما كنت طفلا في الثامنة ورحلنا انا وعائلتي على طول الطريق الساحلية من حيفا الى بيروت بحثا عن ملجأ . لقد حملت كسرة من فلسطين معي ، طيلة هذه الاعوام ، في اوروبا ، في الهند ، في استراليا ، في الولايات المتحدة ، وهي احتوتني في داخلها . وكل مرة حاولت ان اتركها ، مخبولا بحاسة آخريتي وتباعدي ،